أسباب ضعف الأسس النظرية في بحوث الاتصال الجماهيري: دراسة لاتجاهات أعضاء هيئة التدريس المتخصصين في مجال الإعلام بالمملكة العربية السعودية

عبدالرزاق صالح العصماني*

* حصل على الدكتوراه في الإعلام (راديو وتلفزيون) من جامعة وسكنسن بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1984م.
يعمل أستاذاً مساعداً بقسم الإعلام بجامعة الملك عبدالعزيز - جدة.

الملخص

استهدفت هذه الدراسة التصدي لأسباب ضعف الأسس النظرية في أبحاث الاتصال الجماهيري من خلال الإجابة على أربعة أسئلة رئيسية تتمثل في:

أ - الأهمية التي يعطيها الباحث للإطار النظري عند اختياره السؤال وقيامه بالبحث العلمي.

ب - تقييمه الشامل لنظريات الاتصال الجماهيري من حيث قدرتها على توجيه البحث العلمي وتطويره.

جـ - هل يرى الباحث (المبحوث في الدراسة) أن هناك ضعفاً في الأساس النظري لأبحاث الاتصال الجماهيري. وأخيراً

د - إذا كان هناك ضعف فما هي أبرز أسباب هذا الضعف؟

وقد كانت عينة الدراسة هي مجموعة من الباحثين وأساتذة الاتصال الجماهيري في الجامعات السعودية حيث تم جمع استجابات 30 مبحوثا (من هؤلاء الأساتذة) للتعرف على آرائهم واتجاهاتهم في الأسئلة المطروحة حيث أكد خمسة منهم أنهم يعطون أهمية أساسية للإطار النظري دائماً وخمسة آخرون يعطون أهمية للإطار النظري أحياناً وهؤلاء يمثلون ثلث العينة أما العشرون الباقون فقد أكدوا أنهم يعطون الإطار النظري أهمية ثانوية فقط سواء كان ذلك بصورة دائمة أو في بعض الأحيان وهذا يدعم الرأي القائل بعدم وجود اهتمام بالإطار النظري من قبل أكثر الباحثين. وحول تقييم الباحثين لنظريات الاتصال الجماهيري قال بعضهم (15 مبحوثا) إن هذه النظريات ضعيفة بينما قال عشرة منهم إنها جيدة فيما يرى خمسة آخرون فقط أنها ممتازة. وفيما يتعلق بالإجابة عن السؤال الثالث والرابع حول مرئيات المبحوثين فيما إذا كان هناك ضعف في الأساس النظري لأبحاث الاتصال وما هي تلك الأسباب فإن ثلثي المبحوثين (20 مبحوثا) أكدوا على وجود ضعف حقيقي بينما يرى الثلث الآخر عدم وجود ذلك الضعف أساساً.

ويرى هؤلاء الذين أجابوا بنعم على وجود ضعف في الأسس النظرية أن هناك أسباباً عديدة حيث كان السؤال الرابع مفتوحاً مما أدى إلى جمع تسعة عشر سببا من استجاباتهم يمكن تقسيمها إلى أسباب منهجية وأسباب بحثية وأسباب نظرية بالإضافة إلى أسباب عامة. وقد أكدت هذه الدراسة على ضرورة التعرف على الإطار النظري الذي يعمل الباحث من خلاله وذلك من خلال المداخل الرئيسية الخمسة وهي الوظيفة البنيوية، المذهب النشوئي، الصراع الاجتماعي، التفاعل الرمزي والاتجاه النفسي حيث إن معظم الدراسات الإعلامية تندرج تحت هذه الأطر أو المداخل الخمسة.

مقدمة

تزخر المجلات العلمية المتخصصة بكم هائل من الأبحاث في ميدان الاتصال الجماهيري مما أدى إلى اتساع ملحوظ في دائرة المعلوم بالنسبة إلى العديد من القضايا التي كانت مثار تساؤلات من قبل القائمين بالعملية الاتصالية أو دارسي الاتصال الجماهيري على حد سواء. غير أنه من الملاحظ أنه في الوقت الذي تنامت فيه هذه الأبحاث بشكل مطرد لم تطرأ تغيرات كبيرة وواضحة في الجانب النظري للعلم، فالمعرفة النظرية المتوفرة اليوم هي نتاج لما قام به الباحثون الأوائل مثل لازويل ولازازفيلد وولبرشرام وغيرهم. ويلاحظ أن هذه المعرفة تضاءلت تدريجيا منذ منتصف السبعينيات من هذا القرن وغلب على ميدان المعرفة الاتصالية معرفة مجترة تعود إلى تلك الفترة أو ما قبلها وقد أشار نوردين سترونج (Nordenstrong 1968) إلى هذه الظاهرة مؤكدا على أن السبب في ظهورها هو التركيز من قبل المدارس البحثية وخاصة في الولايات المتحدة التي شهدت ظهور الاتصال الجماهيري كعلم على المناهج وقواعد التفسير العلمي بشكل مكثف وذلك على حساب المفاهيم النظرية التي تعتبر ضعيفة في هذه البحوث[1] وقد أيده في هذا الرأي Merton الذي أشار إلى أن البحوث الأمريكية تهتم بالاختبارات التجريبية مما أدى من وجهة نظره إلى تعثر الفرضيات الخلاقة[2].

وقد أشار جولدنج وموردوك (Golding and Murdock 1980) إلى الشكاوى المستمرة خلال السنوات الماضية من أن هناك مشكلتين: أولاهما إهمال النظرية في بحوث الاتصال وثانيتهما ضعف الإطار النظري الذي يفترض فيه أن يوجه البحث العلمي[3] وهناك من يعتقد أنه ليست هناك ندرة في النظريات ولكن توجد ندرة في المنظرين. ومن هؤلاء (بيرلسون Berelson) الذي يرى هيمنة الباحثين من أمثال لازارزفيلد ولازويل وهوفلاند على الجانب النظري وعدم ظهور منظرين جدد.

ويرى John W. Fett أن التركيز على الأدوات البحثية على حساب الجوانب النظرية يوشك أن يحيل أقسام الإعلام إلى مراكز لجمع المعلومات بدلا من التفسير

والتنظير العلمي الذي يدفع بالمعرفة الإنسانية قدماً وأشار إلى أن بعض المدارس الإعلامية كالمدرسة الماركسية والمدرسة الاشتراكية رغم عيوبهما الأيديولوجية التي لا تخفى على أحد إلا أنهما نجحتا في بلورة بعض المفاهيم النظرية الإعلامية وقدمتا إسهامات فكرية جادة[4] ويرى (فيت) أن الساحة تخلو حالياً من مفكرين إعلاميين على غرار مارشال ماكلوهان الذي أثارت نظرياته ولا زالت جدلاً واسعاً منذ منتصف الستينيات ومع أن ماكلوهان لم يكن يعتبر نفسه منظراً في علم الاتصال إضافة إلى أن الكثيرين لا يعدونه كذلك إلا أن آراءه الفكرية الفلسفية ظلت حتى اليوم فريدة في زخمها وعطائها العلمي مع أنه لم يكن من المهتمين بالأبحاث الميدانية القائمة على الأدوات البحثية الحالية كالاستبيان وتحليل المضمون[5].

أما بريندا نيلسون (1987) فقد أكدت في كتاب لها بعنوان فلسفة الاتصال الجماهيري «أن مزيداً من الأبحاث في ميدان الاتصال الجماهيري كشفت عن معلومات جمة لكنها لم تساعد على نشوء نظريات جديدة وقوية وقد ساعد هذا الوضع من وجهة نظرها على اتساع الهوة بين الاتصال الجماهيري كعلم والذي لم يحقق إنجازات علمية بارزة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً وبين الاتصال الجماهيري كممارسة يومية تتمثل في تكنولوجيا وأنشطة وسائل الإعلام التي شهدت قفزات متتالية بمعدل سنوي متزايد[6].

ورغم التأثير الذي أحدثه كتاب توماس كون (Thomas Kuhn) الذي نادى فيه لأول مرة بضرورة تطوير أي علم من العلوم بالتوقف بعد كل مرحلة زمنية وإهمال النظريات التي تحكم ذلك العلم ومن ثم التفكير في رؤية نظرية جديدة، إلا أن الأغلبية الساحقة من المنظرين يرون أن المعرفة الإنسانية هي رصيد متراكم يُبتغى من خلاله الوصول إلى قوانين محددة تحكم الظواهر موضع التساؤل وأن هذا ما أكده أديسون المخترع العظيم عندما قال إنه يقف على أكتاف العمالقة مشيراً بذلك إلى أن أي اكتشاف علمي لا يمكن النظر إليه بمعزل عن الاكتشافات أو الإسهامات العلمية التي مهدت له وساعدت في الوصول إليه. ومن هؤلاء الذين يؤكدون على أهمية الإطار النظري كارل بوبر Karl Popper الذي يرى أن

المعرفة الإنسانية هي كل مترابط وأن النظام النظري نفسه ما هو إلا نظام تعليمي بالنسبة إلى المعرفة الإنسانية ولهذا فإنه يعتبر استخدام النظريات الموجودة في أي علم أمراً أساسياً لتطوير العلم وتمحيصه والإضافة إليه[7].

ورغم اعتراف الكثير من الباحثين في ميدان الاتصال الجماهيري بضعف الأسس النظرية لمعظم الأبحاث إلا أن أحدا حسب علم الباحث لم يتصد للأسباب التي أدت إلى هذا الضعيف من وجهة نظر القائمين بهذه الأبحاث في الوقت الحاضر وما إذا كانوا يرون أن هناك ضعفا حقيقياً في المقام الأول.

ومع هذا كانت هناك آراء متفرقة للعديد من الباحثين الذين حاولوا أن يشخصوا الحالة باجتهاد شخصي ومنهم مولانا الذي يرى في قلة الدراسات الإعلامية المقارنة سبباً في ضعف الإطار النظري ويؤكد على أنه في سبيل الوصول إلى نظرية جيدة وقوية فإن هذا النوع من الأبحاث أي المقارنة «والأبحاث الثقافية يمكن أن تلعب دوراً أساسياً»[8].

ويضيف مولانا: أن كل الأبحاث العلمية هي في الأصل أبحاث مقارنة وأن المقارنة بين الظواهر والمشكلات موضوع الدراسة تدفع بالباحث إلى مزيد من صياغة المفاهيم النظرية الأمر الذي يساهم بصورة فعالة في بناء النظرية الإعلامية. وتعتبر مقترحات مولانا حول الأنظمة الإعلامية المقارنة نموذجا يمكن أن يحتذى في صياغة المفاهيم وتحديد الأطر العلمية للدراسات المقارنة رغم تأثرها بالمناهج وأدوات البحث العلمي في الولايات المتحدة الأمريكية كما أن تأكيده على أهمية الأبحاث الكيفية في دراسة الأنظمة الإعلامية دراسة مقارنة يحظى بقبول عدد من الدارسين وخاصة أولئك المتأثرين بالمدرسة النقدية الأوروبية[9].

ويرى توماس ماكفيل (Thomas Mcphail) أن الباحثين الأمريكيين يركزون على جمع المعلومات وتصنيفها في محاولة للوصول إلى قناعات أساسية لديهم. إنهم لا يرون أن لهم دوراً في تفسير ما يجمعون من حقائق أو أن يبنوا نظريات جيدة وقوية. إن الاتجاه الذي ظهر منذ عام 1930 ولا زال إلى اليوم - حسب رأيه - مهيؤ لمزيد من الأبحاث الكمية الميدانية - السلوكية على حساب الأبحاث المعتمدة

على المفاهيم النظرية والفلسفة العلمية أو تلك الدراسات التاريخية الفلسفية التي يمكن أن تثري ميدان البحث في علم الاتصال الجماهيري[10].

وهذا باحث آخر وهو توماس جاكسون Thomas Jackson يعتقد أن ضعف الأساس النظري له علاقة بهيمنة الجانب الكمي Quantitative Research الذي كان سمة من سمات الدراسات الاتصالية في الماضي ولا زال كذلك في الحاضر وبناء على هذا طالب كما طالب غيره بضرورة تطوير الاتجاه النقدي مع اعترافه بأهمية الاتجاهين في تطوير الأسس النظرية[11].

والواقع أن مشكلة عدم توفر الأسس النظرية القوية في أبحاث الاتصال الجماهيري تزداد تفاقما كلما تقوقع الباحثون داخل دائرة علمية معينة دون أن تكون لديهم رؤية عامة وشاملة وبعيدة لما يتصل بهذه الدائرة العلمية فبعضهم ينظر إلى الاتصال الجماهيري كعلم مستقل ويبحث عن نظرياته المتعددة، والحقيقة أن الاتصال الجماهيري إن هو إلا نوع من أنواع الاتصال المعروفة ولا يمكن النظر إليه بمعزل عن الأنماط الأخرى كالاتصال الشخصي أو الاتصال الثقافي بل إن هناك من المنظرين من يعتقد أن كل أنواع الاتصال على اختلافها ما هي إلا امتداد للاتصال الشخصي الذي يحدث بين الأفراد. كما أنه في حالات كثيرة يبدو الاتصال الجماهيري والاتصال الشخصي كأنهما وجهان لعملة واحدة[12].

وفي العالم العربي ورغم أن وسائل الإعلام لم تظهر كأنظمة مستقلة بعيداً عن مكونات الأنظمة السياسية والاجتماعية والحضارية التي ساهمت في تشكيلها إلا أن أبحاث الاتصال الجماهيري لم تسلك مسلكاً بحثياً يعكس اهتمامات الباحثين بوظائف الأنظمة الإعلامية وتأثرها بالجماهير وانعكاسات البنية الاجتماعية على الأنظمة الإعلامية. لقد أشار وليام رو (1979) إلى هذه الحقيقة في كتابه (The Arab Press) فأكد على أن أي ظاهرة إعلامية أو قضية تخص وسائل الإعلام لا يمكن دراستها وفهمها في معزل عن طبيعة المجتمعات العربية من جهة ومعزل عن التوجيه السياسي للأنشطة الإعلامية من جهة أخرى[13]. إن وسائل الإعلام في العالم العربي هي جزء من نظام ثقافي له ملامحه وخصائصه مهما

تعددت الخصوصيات المحلية وكان ولا يزال لدى الباحثين العرب الفرصة لإثراء أبحاث الاتصال الجماهيري بالمزيد من التفاعل مع الثقافة والقيم الاجتماعية بل وحتى التركيبة الاجتماعية. غير أن أبحاث الاتصال في العالم العربي تأثرت كما تأثرت الأبحاث في مناطق عديدة من العالم بتوجه المدرسة الإدارية الأمريكية في البحث العلمي الذي تلعب فيه الأرقام والنسب المئوية دوراً حاسماً مما شجع على ما يعرف بالأبحاث القصيرة Micro Research وهي أبحاث تهتم بقضايا جزئية ولا تولد اتجاهاً نظرياً واضحاً.

ومع أن الاتجاه التقليدي في الأبحاث العلمية القائم على الاهتمام بأدبيات البحث العلمي وعلى الإطالة والاستنتاج لا زال موجوداً في الكثير من البلدان العربية إلا أن هذه الأبحاث ظلت حبيسة التوجهات التاريخية والوصفية والتسليم بقناعات الباحثين الغربيين واتجاهاتهم في فهم وسائل الإعلام ولم تفلح حتى الآن في خلق رؤى بديلة في النظرية الإعلامية.

الهدف من الدراسة

إن قضية ضعف الأسس النظرية في أبحاث الاتصال الجماهيري هي قضية الباحثين في هذا الميدان أنفسهم وهي قضية تعاني منها الأوساط العلمية (الإعلامية) في الولايات المتحدة بالذات وفي الدول التي تأثرت بالاتجاه الأمريكي في ميدان الدراسات الإعلامية. ولذلك فإن هذه الدراسة تهدف إلى استطلاع آراء عدد من الباحثين في علم الاتصال الجماهيري حول الأسس النظرية في أبحاث الاتصال وذلك من خلال الإجابة على استبيان يحتوي على أربعة أسئلة رئيسية تم إرساله إلى 36 باحثاً في علم الاتصال في ثلاث جامعات سعودية بمعنى أن هذه الدراسة تتناول بصورة خاصة اتجاهات أعضاء هيئة التدريس والمتخصصين في مجال الإعلام في المملكة العربية السعودية حول نظرتهم إلى الأطر النظرية وكيف يتعاملون معها. والجامعات السعودية التي تناولها البحث هي: جامعة الملك سعود، وجامعات الملك عبدالعزيز وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وكانت الأسئلة على النحو التالي:

١ - ما مدى الأهمية التي تعطيها كباحث للإطار النظري عند اختيارك للسؤال وقيامك بالبحث العلمي:

أ - أهمية أساسية دائماً　　جـ - أهمية ثانوية دائماً

ب - أهمية أساسية أحياناً　　د - أهمية ثانوية أحياناً

٢ - ما هو تقييمك الشامل لنظريات الاتصال الجماهيري من حيث قدرتها على توجيه البحث العلمي وتطويره؟

أ - ممتازة　　ب - جيدة　　جـ - ضعيفة

٣ - هل ترى أن هناك ضعفا في الأساس النظري لأبحاث الاتصال الجماهيري على الأقل في الأبحاث التي أشرفت عليها؟

أ - نعم　　ب - لا

٤ - إذا كنت تعتقد بوجود ضعف في الأساس النظري لبحوث الاتصال الجماهيري، فما هي أبرز أسباب هذا الضعف من وجهة نظرك؟ أرجو التحديد.

النتائج

معلومات عامة عن المبحوثين

جدول رقم (1)

توزيع أفراد العينة من حيث العمر

37-31	8
38 إلى 45	16
46 فأكثر	6

جدول رقم (2)

توزيع أفراد العينة من حيث الدرجة العلمية

استاذ مساعد	22
استاذ مشارك	5
استاذ	3

جدول رقم (3)

توزيع أفراد العينة من حيث الجنسية

مصر	الولايات المتحدة	المجموع
14	16	30

جدول رقم (4)

توزيع أفراد العينة من حيث البلد الذي حصلوا منه على الدكتوراه

سعوديون	مصريون
18	12

النتائج

لم يستجب أربعة من المبحوثين بينما كانت هناك استمارتان غير مكتملتين وتم تحليل الاستمارات الباقية وعددها 30 (ن = 30). فيما يتعلق بالسؤال الأول حول نظرة الباحثين إلى الإطار النظري كانت الإجابة كالتالي: -

جدول رقم (5)

	دائماً	أحياناً
أساسية	5	5
ثانوية	15	5

قال 5 من الباحثين (المبحوثين في الدراسة) إنهم يعطون أهمية أساسية للإطار النظري عند طرح السؤال البحثي بصفة دائمة ويمثل هؤلاء 16,66٪ من مجموع المبحوثين بينما قال خمسة آخرون إنهم يعطون أهمية أساسية للإطار النظري الذي يعملون فيه ولكن (أحياناً)، مما يشير إلى أنهم في أحيان أخرى لا يعطونه هذه الأهمية الأساسية. ومن ناحية أخرى فإن نصف المبحوثين وعددهم (15) أشاروا إلى أنهم يعطون أهمية ثانوية للإطار النظري بصورة دائمة فيما قال خمسة من المبحوثين إنهم يعطون الإطار النظري أهمية ثانوية أحياناً، ويمثل هؤلاء نسبة قدرها 16,66٪ من مجموع المبحوثين وعلى هذا فإن المبحوثين الذين يعطون أهمية ثانوية للإطار النظري (بصورة دائمة أو في بعض الأحيان) يبلغ الثلثين بينما ثلث المبحوثين فقط يعطون أهمية أساسية سواء بصورة دائمة أو في بعض الأحيان. وهكذا فإن هذه النتيجة تؤكد ما جاء على لسان الكثير من الباحثين من أن هناك عدم اهتمام بالإطار النظري وأن التركيز يتم في الغالبية على أمور أخرى تتعلق بالمنهج أو بقواعد التفسير العلمي.

وحول تقييم الباحثين الشامل لنظريات الاتصال الجماهيري من حيث قدرتها على توجيه البحث العلمي وتطويره (سؤال رقم 2) قال بعضهم (15 مبحوثا) إن هذه النظريات ضعيفة بينما قال عشرة منهم إنها جيدة فيما يرى خمسة آخرون فقط أنها ممتازة.

وفيما يخص الإجابة عن السؤال الثالث حول مرئيات المبحوثين فيما إذا كان هناك ضعف في الأساس النظري لأبحاث الاتصال الجماهيري أجاب ثلثاهم أنهم يرون ضعفاً حقيقياً بينما يرى الثلث الآخر عدم وجود ذلك الضعف أساساً.

وبما أن السؤال الرابع وهو: إذا كنت تعتقد بوجود ضعف في الأساس النظري لبحوث الاتصال الجماهيري، فما هي أبرز أسباب هذا الضعف من وجهة نظرك؟ أرجو التحديد. هو سؤال مفتوح فقد ترك للمبحوثين حرية الإجابة عليه بالطريقة التي يرونها مناسبة في محاولة لإثراء الإجابات بمزيد من التفصيلات التي قد تعبر عن توجهات المبحوثين وقناعاتهم الشخصية دون تأطير للإجابات من قبل الباحث ولأغراض البحث العلمي فقد صنفت كل مجموعة من الإجابات تصنيفاً خاصاً حيث بلغت هذه التصنيفات أربعة تصنيفات رئيسية هي: أسباب منهجية، أسباب بحثية، أسباب نظرية، وأسباب عامة. ويلاحظ أن الإجابات سجلت كما وردت في استمارات المبحوثين لكنها صنفت فقط لتسهيل فرزها، ولربطها بميدان الاتصال الجماهيري بحثياً ونظرياً ومنهجياً.

أولاً: أسباب منهجية

1 - إلحاحية السؤال من قبل الباحث مما يجعله يتحمس للسؤال ومن ثم يبدأ في جمع الدليل دون اكتراث للإطار النظري.

2 - التركيز على الأبحاث الكمية Quantitative Research ورغم أهمية هذا الاتجاه البحثي للتصدي لبعض الظواهر إلا أنه، كما يرى المبحوثون، أضعف الإطار النظري الذي كثيراً ما تطوره الأبحاث الكيفية بمفاهيمها النظرية الجديدة. وفي بعض الأحيان يطرح الباحث سؤالاً يعرف مسبقاً أن جوابه سيكون كمياً وفي هذه الحالة فإنه سيتردد في طرح سؤال يعرف أن إجابته لن تكون إجابة رقمية مما جعلنا نلاحظ الكثير جداً من الأبحاث التي تطرح فيها الأسئلة، بطريقة يحس معها القارىء بنوع المنهج المستخدم والأداة البحثية الكمية. والواقع أن الإسراف والمبالغة في الأبحاث الكمية

نجم عنهما ضعف المساهمة في البناء النظري لأن ما ينتج عن هذه الأبحاث هو كم هائل من المعلومات لا تؤدي إلى تدعيم النظريات الموجودة أو فتح آفاق نظرية.

3 - عدم الاهتمام بالأبحاث النقدية والاستعاضة عنها بالدراسات الوصفية البسيطة التي لا تضيف أبعاداً جديدة للبناء النظري بل تكتفي بإلقاء الضوء على الظاهرة موضوع الدراسة وشرح جوانبها المختلفة. فمن المعروف أن الأبحاث النقدية القائمة على الشرح والتفسير والاستنتاج والربط المنطقي تثري البحث العلمي بما تقدمه من مفاهيم نظرية ليس فقط من منظار القيمة العلمية بل حتى من زاوية البناء اللغوي الذي يسهم في بناء المعرفة التنظيرية وتعميقها بشكل أوضح.

4 - قلة الأبحاث المقارنة في الاتصال الجماهيري مع الأهمية الشديدة لهذه الأبحاث في توضيح الرؤية وتوسيع المعرفة للظاهرة موضوع الدراسة. وساعد على هذا عدم وجود تعاون مكثف بين الهيئات الأكاديمية المختلفة بغية تبادل المعرفة في هذا الشأن مما أدى إلى ظهور الازدواجية في طرح الأسئلة أو الاكتفاء بالبعد المحلي الذي يستنتجه الباحث أثناء دراسته.

5 - قلة أبحاث «دراسة الحالة التي عادة ما تكون ثرية وشاملة وعميقة نظراً لصعوبة أمثال هذه الدراسات وحاجتها في كثير من الأحيان إلى فريق بحثي يتناول كل باحث فيه جزئية محددة في إطار الظاهرة موضوع الدراسة.

6 - عدم التوسع في استخدام المناهج العلمية المتاحة في ميدان الاتصال الجماهيري وفي العلوم الأخرى فالملاحظة والتجارب المعملية، عادة ما تشجع على المزيد من الفرضيات الخلاقة التي تثري العلم. فلقد استخدمت التجارب المعملية في الولايات المتحدة للتعرف على أثر وجود الكاميرا التليفزيونية في قاعة المحكمة - على الشهود والقضاة والمتهمين - كما استخدمت لقياس درجة العنف عند الأطفال بعد مشاهدتهم أفلاما عنيفة، يضاف إلى ذلك استخدام أجهزة اليكترونية متطورة تتصل بأجهزة فيديو

خاصة يمكن منها مراقبة حركة العينين عند المشاهد وقياس الموجات التي يصدرها المخ عند التعرض للمشاهد الحزينة أو المفرحة على الشاشة.

ثانياً: أسباب بحثية

1 - قلة وجود أبحاث الربط والاستنتاج ويقصد بها هنا مراجعة الأبحاث التي تمت خلال فترة زمنية معينة في موضوع معين وجمع كافة النتائج المتعلقة به ومن ثم تكوين مفاهيم نظرية جديدة تتمشى مع نتائج الأبحاث نفسها مع قياسها بالنظريات المعروفة وعمل كهذا يشبه جمع قوالب الآجر المتناثرة في هيكل بنائي متكامل.

2 - قلة أبحاث الـ Replicate المؤيدة أو المنافية للأبحاث السابقة في موضوع واحد، فمن الشائع عند بعض الباحثين أنهم لا يتناولون بحثاً سابقاً تمت دراسته، وهذا خطأ شائع إذ إن الأبحاث الموازية تهدف إلى تدعيم النتائج التي توصل إليها الباحث السابق أو تضعف من شأنها وخاصة إذا تمت الدراسة الموازية في بيئة مختلفة عن البيئة السابقة.

3 - عدم وضوح السؤال المطروح أو عموميته مما يؤدي بالتالي إلى توسيع البحث ليشمل جوانب عديدة على حساب العمق الذي كان من الممكن أن يسهم في البناء النظري.

4 - عدم وضوح الرؤية عند بعض الباحثين الذين لا يستطيعون التمييز بين الأبحاث الإدارية أو الموجهة من جهة وبين الأبحاث الأكاديمية فالغرض من الأخيرة ليس فقط الوصول إلى كم من المعلومات وهو - ما تنتهي إليه الأبحاث الإدارية - وإنما تهدف الأكاديمية إلى توسيع القاعدة المعرفية للعلم نفسه من خلال إسهامها في البنيان النظري الموجود.

5 - قلة الأبحاث التي تجمع تخصصات مختلفة Interdisciplinary فالملاحظ أن الأبحاث المشتركة تساهم في توسيع آفاق الباحثين وتعرفهم على أبعاد نظرية قد تكون جديدة عليهم فمثلاً أقسام الإعلام وأقسام اللغة العربية يلاحظ

أن معظم المتخصصين بها ينغلقون في ميادين تخصصاتهم مع أن إمكانية مساهمتهم في أبحاث مشتركة أساسية فاللغة - أي لغة - هي وعاء العملية الاتصالية كما أن العلاقة بين تخصصات الإعلام والدراسات الاجتماعية قوية جداً ويمكن أن يسفر التعاون البحثي بين باحثين في هذه التخصصات عن إثراء القاعدة البحثية لهذه العلوم جميعاً.

6 - اعتبار الإجابة البحثية هدفاً في حد ذاته، ورغم أن لهذا جانباً من الصحة إلا أن النتائج العلمية لا تشكل دائماً الهدف النهائي ولكنها تقاس بمدى أصالتها وقدرتها على تدعيم أو إضعاف المعرفة النظرية السابقة حول الظاهرة موضوع الدراسة بمعنى أن البحث يجب أن يشكل جسراً بين المعرفة السابقة والمعرفة اللاحقة.

ثالثاً: أسباب نظرية

1 - وجود بعض النظريات المغلقة التي لا تتيح إمكانيات واسعة في الاستنتاج ومن ثم تفتقد إلى قابليتها للاختبار وتطوير البحث العلمي مستقبلاً ومن ذلك نظرية مارشال ماكلوهان حول امتداد الحواس Senses Extention ونظريته في سخونة وبرودة الوسائل ونظرية المحاكاة التي تشرح تطور العملية الاتصالية عند الإنسان ونظرية التمثيل التي ترى أن العملية الاتصالية ليست سوى تمثيلية يقوم بأدوارها ويتناوب عليها القائمون بالعملية الاتصالية ونظرية التنفيس التي ترى أن مشاهدة العنف التليفزيوني ربما يوفر متنفساً للمشاهدين حيث يمارسون الجريمة بصورة سلبية مما يجعلهم أكثر إحساساً بالحياة.

2 - أدى مفهوم أن البحث يأتي أولاً ثم تأتي النظرية بعد ذلك إلى إغفال للنظريات الموجودة بالفعل على أمل أن تؤدي محصلة الأبحاث في مجموعها إلى تولد نظرية جديدة وهذا الاتجاه تتزعمه المدرسة الأمريكية المعروفة باسم المدرسة الإدارية Administrative School.

3 - عدم وجود أساس نظري لبعض القضايا التي تطرح في مجال الراديو والتليفزيون من الأصل، مما يجعل الباحث يستعير نظريات من علوم أخرى دون توظيفها التوظيف الجيد في خدمة النظرية الإعلامية لكون تلك الأبحاث تخدم النظرية المستعارة أكثر مما تخدم نظريات الاتصال الجماهيري ومثال ذلك نظريات العنف التليفزيوني والسلوك العدواني.

رابعاً: أسباب عامة

1 - مفهوم هل البحث أولاً أم النظرية فهناك اتجاه لدى مدارس البحث الأمريكية بأن البحث يسبق النظرية وهو ما يعرف بالتعميم من الحالات المتفرقة Induction وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن تهمل النظريات السابقة تماماً ولكن هناك اعتقاد لدى مؤيدي هذه المدارس أن النتائج البحثية المختلفة من شأنها أن تؤدي على المدى الطويل إلى إيجاد نظريات علمية جيدة لكن هذا لم يتحقق بالفعل فهناك معرفة علمية متراكمة من جراء تلك الأبحاث لكنها لم تؤدِ إلى إيجاد تلك النظريات بشكل أو بآخر. وفي المقابل فإن بعض المدارس الأوروبية تميل إلى الاستفادة من النظريات الموجودة بالفعل حتى لو كانت من علوم أخرى كمداخل أساسية لمشكلات بحثية وهو أمر إيجابي لكن مشكلته الحقيقية هي الاكتفاء بالدوران في تلك النظريات التقليدية دون تجديد مع أن الاتجاهين يمكن أن يثمرا لو أحسن استخدامها مما يساعد على تطوير البحث العلمي ومن ثم الوصول إلى نظرية إعلامية قوية.

2 - التركيز في الأبحاث على ما يعرف علمياً بمراجعة الأبحاث السابقة Review of Literature ورغم ضرورة هذا في البحث العلمي إلا أن هذا الإجراء يفقد أهميته بسبب إقدام الباحث على اختيار مجموعة من الدراسات التي تبلور مكانة بحثه هو إذ من الصعب عليه تقصي كافة الأبحاث التي

صدرت مع أن تركيزه على الإطار النظري أسهل وذلك لقلة النظريات إذا ما قيست بالأبحاث.

3 - زيادة الأبحاث الفردية إذا ما قيست بالأبحاث الجماعية Team Research فالمعروف أن الأولى تتناول عادة قضايا جزئية تتلاءم مع إمكانية الباحث العلمية والمادية فالباحث الفرد يسأل سؤالا يعرف مسبقاً أنه يستطيع الإجابة عنه في حدود إمكانياته الشخصية هو بينما تعمل الأبحاث الجماعية على توسيع قاعدة البحث وآفاقه مما يؤدي إلى توزيع مهام البحث العلمي بما في ذلك الإطار النظري.

المنهج والنظرية في دراسات الاتصال الجماهيري

كغيره من ميادين البحث في الدراسات الإنسانية، استفاد الاتصال الجماهيري من مناهج البحث وقواعد التفسير العلمي المعروفة في العلوم التطبيقية وغيرها من العلوم التي سبقته، ولكن يبدو أن الاهتمام بتلك المناهج والأدوات البحثية لم يسر في خط متوازن مع الاهتمام بالنظرية. وقد أشار إلى ذلك تكنور[15] (Tichenor 1981) عندما أكد على أنه لا يمكن بحال من الأحوال الفصل بين المنهج والنظرية فأي منهما لا يستطيع أن يعمل بمفرده وأن الباحث بقدر اهتمامه بالأدوات والمناهج البحثية التي تمكنه من تتبع الظاهرة موضوع الدراسة ومحاولة فهمها، يجب أن يصاحب ذلك اهتمام بالنظرية التي تكون بمثابة المرشد بالنسبة له حتى لا يتيه في خضمّ جمعه الدليل عن الهدف الرئيسي من بحثه.

كيف يتم الربط بين البحث والنظرية (توصية بحثية)

لعل أبرز المشكلات التي يواجهها الباحث هي عدم تمكنه من السيطرة الكاملة على كافة الجوانب النظرية في مجال دراسته لتعدد النظريات من جهة ولصعوبة البحث عنها في ذلك الكم الهائل من المعرفة المكتوبة من جهة أخرى لكنه في الواقع غير مطالب بتتبع كل نظرية ليعرف موقع دراسته من هذه النظرية

أو تلك وإنما هو مطالب في المقام الأول بالتعرف على الإطار النظري العام Paradigm الذي يمكنه من ربط بحثه بصورة جيدة بإطار نظري واضح وقد استخدم الباحث الأطر العامة التي بلورها دفلور وركيش (Defleur & Rokeach 1982) لتسهل للباحثين مسألة الربط بين السؤال المطروح والإطار النظري العام ويمكن تلخيصها في التالي:

1 – الوظيفة البنيوية: Structural Functionalism

في هذا الإطار يمكن للدارس أن يتناول وسائل الاتصال كأنظمة اجتماعية ذات وظائف محددة الهدف منها الحفاظ على المجتمع كنظام مستقل ويتبع ذلك دراسة كافة الوظائف التي تقوم بها تلك الوسائل وعلاقة ذلك بالبنية الأساسية للأنظمة. وهذا الاتجاه السوسيولوجي يركز بشكل مكثف على نشاط هذه الوسائل في وضع ثابت Static كما يشمل كافة النظريات التي تعالج وضع وسائل الإعلام كأنظمة من خلال دراسة لمقوماتها وللعلاقة التي تربط بين تلك المقومات ومن أمثلة المجالات البحثية ذات العلاقة بهذا الإطار النظري:

* **وظائف وسائل الإعلام** (الوظيفة الأدبية، الرياضية، الفنية، للصحافة، الوظائف التربوية للتليفزيون والراديو والصحافة.. الأقمار الصناعية وخدماتها البرامجية والإخبارية، الدور التثقيفي لوسائل الإعلام، الإعلام والتنمية، الإعلام والتعليم، برامج التوعية الصحية والدينية، الدور الإعلامي لوسائل الإعلام في الأزمات السياسية والعسكرية، التليفزيون والتنشئة الاجتماعية، الخدمات الإخبارية، الإعلام العسكري، دور الإعلام في معالجة المشكلات الاجتماعية).
* **دراسات الأنظمة الإعلامية**
  - المقارنة بين الأنظمة الإعلامية بوجه عام.
  - طريقة صنع القرار داخل المؤسسات الإعلامية.

- السياسات الإعلامية.
- السياسات البرامجية.
- تمويل البرامج وأثره في المضمون. . . الخ.

2- المذهب النشوئي Evolutionary Perspective

وهذا الإطار لا يختلف عن سابقه من حيث أنه يعتبر إطاراً وظيفياً ولكنه ينظر إلى الوظائف التي تقوم بها وسائل الاتصال في خدمة المجتمعات على أنها متغيرة، فإذا أخذنا الأسرة - على سبيل المثال - نجد أن وظائفها في خدمة الفرد موجودة في مختلف العصور غير أن الطريقة التي تؤدي بها تلك الوظائف تختلف من عصر إلى عصر تبعاً للمتغيرات البيئية الطارئة، ومن هنا فإن النظريات المتوفرة داخل هذا الإطار تحاول دراسة وظائف الاتصال إبان حركتها وتغيرها تبعاً للمستجدات وعلى اعتبارها (أي وسائل الاتصال) مؤسسات اجتماعية أيضاً. وتعتبر الدراسات التاريخية التي تتناول نشاط وسيلة اتصالية معينة على مدى فترة زمنية محددة من أكثر الدراسات توفراً في هذا المضمار. وهنا تتضح الروابط القوية بين الإطار النظري والمنهج التاريخي باعتبار أن المنهج التاريخي يمكن أن يدخل إليه الباحث من مدخل وظيفي كالذي يدرس صحافة الرأي في العالم العربي على مدى عشرين عاماً مثلاً، أو ذلك الذي يتناول بالدراسة وظائف الصفحات الفنية في الصحف العربية خلال حقبة زمنية معينة.

ومن أمثلة المجالات البحثية ذات العلاقة بهذا الإطار النظري:

* **وظائف وسائل الإعلام على مدى فترة زمنية معينة**

- الصحافة الفنية خلال 20 عاماً.
- دور الصحافة السعودية في دعم الأدب السعودي منذ 30 عاماً.
- برامج الأطفال وتطورها خلال حقبة زمنية معينة.
- الخدمة الخبرية في التليفزيون خلال فترة زمنية.

- اتجاهات الخدمة الخبرية.
- الوظيفة التنموية للإعلام من فترة كذا إلى فترة كذا.
- تطور البرامج الدرامية.
- الصحافة بين الماضي والحاضر.
- تطبيقات العلاقات العامة خلال فترة زمنية.

* **الدراسات التاريخية**

- تاريخ التليفزيون التعليمي.
- الأدب في الصحف العربية منذ فترة كذا.
- تطور النظام الإعلامي في دولة (كذا).
- البرامج الرياضية بين فترتين.
- الدور التنموي لوسائل الإعلام خلال عصر (كذا).
- التغطية الإخبارية التليفزيونية وتطورها خلال... عاماً.
- تاريخ الصحافة.
- تاريخ الراديو والتليفزيون.
- بدايات الإعلان وتطور الخدمات الإعلانية... الخ

3 - الصراع الاجتماعي: The Social Conflict Model

في هذا الإطار يمكن النظر إلى وسائل الاتصال كمؤسسات اجتماعية ذات وظائف محددة، غير أنها أثناء أدائها لتلك الوظائف تصطدم بالعديد من المؤسسات الاجتماعية الأخرى التي تؤدي وظائف مشابهة أو مختلفة، إذ كثيراً ما تصطدم بالقوانين وبالحكومات وبالمؤسسات الاقتصادية أو جماعات الضغط. ومن هنا فإن الباحث في ظل هذه الخلفية يهتم بمسألة الصراع التي تتم ويعتبر أن التعرف على حقائق ذلك التضارب ونتائجه وآثاره بالنسبة للمجتمع مسألة

أساسية. وتدخل البحوث القانونية Legal Research ضمن هذا الإطار النظري وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعزى فكرة الصراع الاجتماعي إلى كارل ماركس وخاصة مفهومه عن صراع النقائض أو الأضداد Dialictic الذي يقوم على فلسفة أن هذا الصراع بين النقائض سيتولد عن أفكار جديدة ذات عناصر تختلف في تركيبها عن الأفكار المتصارعة لكن أي باحث يختط لنفسه منهجاً داخل هذا الإطار غير مدين لماركس بشيء على الاطلاق فالتركيز هنا يتم على مشكلات المواجهة بين وسائل الاتصال وبين المؤسسات الأخرى ذات الوظائف الشبيهة بوظائف الوسائل أو تلك المختلفة عنها ويدخل ضمن هذه الدراسات بطبيعة الحال ديموقراطية الاتصال والدراسات النقدية الخاصة بمشروعية الوسائل في توجهها للجماهير وكذلك قضايا الحرية وإمكانية التعبير من قبل الجماهير عبر وسائل الاتصال إلى غير ذلك من القضايا.

ومن المجالات البحثية ذات العلاقة بهذا الإطار(على سبيل المثال لا الحصر):

* **الدراسات القانونية**

الدراسات الإعلامية المتصلة بـ:

- قوانين القذف.
- قوانين البذاءة أو الفاحشة.
- قوانين الإهمال.
- القضايا المدنية.
- القضايا الخاصة بالأمن الوطني.
- القضايا الدولية ذات الأبعاد الإعلامية والقانونية.
- قوانين الخصوصية.
- أنظمة المطبوعات والمؤسسات الصحفية.

- كل القضايا المتعلقة بحرية وسائل الإعلام.

* **الدراسات النقدية**

الدراسات المتعلقة بـ:

- حق الاتصال.
- مشروعية وسائل الإعلام في التعبير عن المجتمع.
- التضارب بين وظائف وسائل الإعلام والمؤسسات الأخرى.
- الدراسات المتعلقة بملكية وسائل الإعلام والاحتكار... الخ.

4- التفاعل الرمزي: Symbolic Interactionism

يعتبر ميد وريتشاردز Mead & Richards من أوائل من طوروا هذا الإطار النظري في أبحاث الاتصال حيث يتضمن هذا الإطار كافة الدراسات المتعلقة باستخدامات اللغة باعتبارها الوعاء الأساسي للعملية الاتصالية ويتصل باللغة أيضاً الرموز والإشارات والحركات وغيرها من مقومات الاتصال غير اللفظي Nonverbal Communication وعلى هذا فإن باحثاً يكون مهتما بالمضامين الاتصالية في كافة صورها من كلمات أو إشارات أو غيرها يستطيع أن يجد داخل هذا الإطار العديد من النظريات التي تسهم في بلورة سؤاله كما يصبح من السهل عليه مراجعة الأبحاث السابقة التي عادة ما تصنف في المكتبات تحت عنوان «التفاعل الرمزي» نفسه.

ومن المجالات البحثية المتصلة بهذا الإطار (على سبيل المثال لا الحصر):

- اللغة واستخداماتها في وسائل الإعلام.
- وضوحية التعبير ووضوحية الرسالة.
- المصطلحات التي تروج لها وسائل الإعلام.
- الكلمات الدخيلة في المسلسلات والبرامج.

- وسائل التعبير المرئية في وسائل الإعلام كالحركات والإشارات والإيماءات.
- طريقة الكلام والسلوك التي ترد في المسلسلات التليفزيونية.
- السلوكيات الوافدة مثل بعض أنماط الرقص والتعبير الغربية.
- كل ما يتصل بطرق التعبير بالحركة واللبس.

5 – الاتجاه النفسي: Psychological Frameworks

هذا الإطار النظري والبحث طوره باحثون معظمهم من علم النفس ويقوم على فلسفة أن العقل هو المحطة النهائية للرسالة الاتصالية وليس المضمون الاتصالي نفسه ومن هنا فإن اهتمامهم ينصب على أثر هذه الرسالة بالنسبة للمتلقي سواء من الناحية الذهنية أو من حيث السلوك. ويصنف هذا الاتجاه علمياً تحت عنوان «أثر وسائل الاتصال Mass Media Effects» الذي طور بفعالية في الولايات المتحدة خاصة بعد ظهور دراسات العنف التليفزيوني وأثره على الأطفال.. ويندرج تحته أيضاً ما يعرف بالـ Cognitive Orientation وترمز إلى تلك الدراسات التي تبحث في المتلقي ورغباته التي يحاول إشباعها من خلال التعرض لوسائل الاتصال. ويعتبر كاتز (Katz 1952) أو من تحدث عن هذا الاتجاه عندما طرح لأول مرة سؤالاً يتعلق بماذا يصنع الجمهور بوسائل الاتصال بدلاً من السؤال التقليدي ماذا تصنع وسائل الاتصال بالجمهور. غير أن دراسة الأثر تعتبر من أعقد الدراسات في ميدان الاتصال بالنظر إلى صعوبة قياس الأثر من الناحية العلمية والسيطرة على العوامل التي تجعل من الصعب تحديد أثر الوسائل من بين عوامل عديدة لا حصر لها يمكن أن تؤثر بدورها على المتلقي.

ومن المجالات البحثية المرتبطة بهذا الاتجاه:

- كل الدراسات المتعلقة بأثر وسائل الإعلام على المتلقي.
- كل الدراسات الخاصة بالإشباع.

- الدراسات الخاصة بالتأثير في اتجاهات الجمهور.
- الموضوعات المرتبطة بدراسات العنف التليفزيوني والسينمائي.
- التليفزيون والطفل.
- التليفزيون والأقليات.
- الأثر القريب والأثر البعيد للوسائل الإعلامية والإعلانية.
- دراسات الدعاية وتأثيرها.
- الإعلان والسلوك.
- تأثير الحملات الإعلانية وحملات العلاقات العامة.

الهوامش والمراجع

(1) - Peter Golfing and Graham, Theories of Communication and Theories of Society in **Mass Communication Review Year Book** edited by Cleveland Wilhoit and Harold de Book, Val: I Sage Publication, Revelry Hills, Ca (1980) pp. 60-61.

(2) المرجع السابق ص: 62 .

(3) المرجع السابق ص: 60 .

(4) - John W. Fett, **Intellectual Concepts of Mass Communication Theories.** Fisher and Raw Publishing INC, New York, 1989, pp. 111-113.

(5) نفس المرجع السابق ص: 112 .

(6) - Brenda Nelson, **The philosophy of Mass Communication** Peter International Publishing, London, 1987, p. 62.

(7) - Karl R. Popper, **Conjectures and Refutations: The Growth of Scientific Knowledge.** Harper torch books, (New York, 1963, p. 221).

(8) - Hamid Mowlana, A Paradigm for Comparative Mass Media Analysis. **In International and Inter Cultural Communication** edited by Heinz Dietrich Fisher and John Merrill, Hasting House Publisher, New York, 1976 p. 474.

(9) المرجع السابق ص: 474 - 484 .

- Thomas L. Mcphail, **Electronic Colonialism,** Sage Library of Social Research, SAGE publication, Beverly Hills, 1981, p. 75. (10)
- Stuart Surlin, A Review of Beranda Derving Book; Progress in Communication Sciences, Journalism Quarterly, Vol 63, No. 2 (1986), p. 432. (11)
- Mervin Smith, Radio, TV and Cable CBS College Publishing, New York, (1985) P. 335. (12)
- William Rugh, **The Arab Press,** Syracuse University Press, New York, 1979, p. X Vi. (13)
- Philip Tichenor, **The Logical Social and Behavioral Science** in Research Methods in Mass Communication edited by Guido Stmepel and Bruce Westley, (Prantice Hall INC, Engle Wood Cliffs, N.J. 1981) p. 10. (14)
- Melvin De Fleur, and Sandra B. Rokeach, Theories of Mass Communication. (Longman INC, New York, 1982) pp. 13-25. (15)

❋ ❋ ❋